رد على نقد :

مع البلاغيين ...

للأستاذ على العمارى

كتب الأستاذ كامل شاهين فى عدد « الرسالة » (٦٩٢) مقالا تحت عنوان (علوم البلاغة بين القدامى والمحدثين) يرد به علىّ وعلى الأستاذ على الطنطاوى فيما كتبناه عن علوم البلاغة فى الجامعة . وأنا أوثر أن أترك للأستاذ الطنطاوى أن يرد عما وجهه إليه الكاتب . فللأستاذ أسلوبه وقلمه البليغ ، وما أحب أن يحرم قراء « الرسالة » من بيانه فى هذا الموضوع .

والأستاذ شاهين مشكور لأنه لما رأى سكوت الأستاذ الخولى وجماعته من الذين يسمون أنفسهم (الأمناء) تبرع بالذب عنهم ، والانتصار لهم ، وما أظنهم راضين عنه فقد كان السكوت أولى من مثل هذا الرد الملوء أخطاء وتخليطاً ، وحسب القراء أن أنقل إليهم الفقرة الأولى من كلامه ليتبينوا مدى ما فيها من الأغاليط :

١ — « تقول إن الفكرة المتسلطة عليه فى هذا الفن أن يجعل لكل عبارة من عباراته منبعاً لمعان نفسية . أى نعم ياعلىّ ، أأنت قرأت تعريف البلاغة ؟ إن الذى لا يختلف فيه اثنان هو أن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال ، ولا أزيد بيانا ولا بسطاً ولكن هذه المطابقة لا تكون إلا بإدراك المتكلم لنفسية السامع وما تحوى من ملابسات . فهذا هو فحوى كلام الأستاذ الخولى أفتمارى فى هذا ؟ إذن فهات تعريفك أنت لعلم البلاغة فإنا منتظرون » .

وأنا قد قرأت تعريف البلاغة ، واطلعت على أكثر الكتب التى عرفت البلاغة ، ومما يؤسف له يا سيد كامل أن أحداً من العلماء لم يعرّف البلاغة هذا التعريف الذى ذكرته ، ويبدو لى أنك تريد أن تجدد كما يجدد الشيخ أمين الخولى ، والتجديد سهل ميسور ، ما دام قصارى المجدّد أن يسوق قضايا مخطئة ، وإليك ما أعرفه أنا وما يقوله العلماء فى تعريف البلاغة :

ذكر يحيى بن حمزة صاحب كتاب الطراز وهو من الكتب الممدودة فى البلاغة تعريفها فقال : « اعلم أن البلاغة فى وضع اللغة هى الوصول إلى الشىء والانتهاء إليه فيقال بلغت البلد أبلغه بلوغاً والاسم منه البلاغة ، وسمى الكلام بليغاً لأنه قد بلغ به جميع المحاسن كلها فى ألفاظه ومعانيه ، وهو فى مصطلح النظار من علماء البيان عبارة عن الوصول إلى المعانى البديعة بالألفاظ الحسنة ، وإن شئت قلت هى عبارة عن حسن السبك مع جودة المعانى » فهذا عالم من علماء القرن الثامن الهجرى وهو يذكر أن هذا التعريف (فى مصطلح النظار من علماء البيان) وعرفها أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين فقال : « البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن » ، وللعلماء والأدباء تعاريف كثيرة للبلاغة ليس منها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

ونحن إذا سألنا طالباً صغيراً عن تعريف علم المعانى يقول : « إنه علم بقواعد وأصول يعرف بها مطابقة الكلام لمقتضى الحال » . فاذا قلنا له : هل مطابقة الكلام لمقتضى الحال هى البلاغة . يقول : لا . بل لا بد من زيادة وإضافة إليها . فنقول كما قال بعض العلماء (مع فصاحته) ، وهذه عبارة مهمة جداً ومكملة للتعريف .

والطلاب الصغار يعرفون أن علوم البلاغة ثلاثة : المعانى ، والبيان ، والبديع . وأن لكل علم تعريفاً خاصاً ، ولا يصلح تعريف علم منها لأن يكون تعريفاً للبلاغة . فهل يصر الأستاذ شاهين على أن هذا التعريف للبلاغة « لا يختلف فيه اثنان » أو يسلم معنا أنه كما حيث أراد النهوض .

على أنى كنت أنقد كلام الأستاذ فى علم البيان وقلت (فى هذا الفن) أقصده فهل يحتج بتعريف علم المعانى على كلام فى علم البيان ؟

كما أرجو أن تعلمى أيتها العزيزة — إن كنت لا تعلمين — أننى لا شأن لى بما يقع فى كتابى من خطأ فى بعض الأحيان . فلست أنا مصدرها ، ولا يجوز أن أحاسب عليها . إنما يؤخذ بها قلمى ، فهو من نوع غير جيد ، وكثيراً ما يتعثر فى الكتابة ، ويخونه التوفيق ، فيجرى بغير الصواب .

كامل كيلانى

٢ — قلت إن اللغة العربية مملوءة بالتشبيهات الحسية التي لا ترمي إلى معانٍ وراءها ، وعبت على الشيخ الخولى أن يعتبر جعل العلماء بيان حال المشبه من أغراض التشبيه (كلاماً فارغاً) فجاء الأستاذ شاهين يرد علينا هذا ، وهو لم ينصف الشيخ أمين ولم ينصفنا .

العرب يقولون : أسود كحنك الغراب ، ويقولون : أحمر كالدم القانى ، ويقول امرؤ القيس :

ترى بعر الآرام فى عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل

ويقول الله سبحانه وتعالى (وجفان كالجواب وقدور راسيات) أفلا تكون هذه التشبيهات مقبولة حتى تلتمس لها معانى وراءها .

على أن الخبط وتلمس المعانى سهل ميسور ما دمنا لا نبالى الخطأ . فكل إنسان يستطيع أن يحمل النصوص ما لا تحتمل ، ولذلك مثال سقناه فى مقالنا الثالث المنشور فى « الرسالة » وهو تعليق الشيخ أمين على بيت بشار بن برد .

٣ — ونحن لا نأخذ كلام المتقدمين قضايا مسلمة دائماً ، كما لا نتهم أذواقهم ولكنا نقبل منها المقبول ، ونرفض ما يتبين أنه ضعيف واهٍ . وليس كلامهم الذى سقناه بالكلام الضعيف الواهى ولكنه حسن جميل يعتمد على الذوق قبل كل شىء ، فأنت حين تسمع ذكر المشبه تستشرف لما يجىء بعد وتخطر فى ذهنك أكثر التشبيهات القريبة ؛ فإذا جاء الشاعر أو الناثر بتشبيه بعيد نادر وقع من نفسك موقعاً حسناً ، وعرفت مقدار ما عانى الشاعر فى استخراج هذا التشبيه . والتشبيه فن ، وهو يكون فى الماديات البحتة كما يكون فى المعنويات ، وتلمس المعانى وراء كل تشبيه إنما هو تعنت وحذلقة .

أين المعانى النفسية وراء قول طرفة :

كأن حدوج المالكية غدوة بقايا سفين بالنواصف من دد

أو قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

أو قول المهلهل بن ربيعة :

كأنا غدوة وبنى أبينا بجنب عنيزة زجلا مدير

أو قوله :

كأن رماحهم أشطان بئر بعيد بين حائيها غرور

الخ ... الخ .

وتكذب على هذه التشبيهات بما شئت فأنك تستطيع أن تحيطها بكثير من المعانى ، ولكنها بعد من عندك وصنعك ، ولم يفكر فيها الشاعر ولا إليها قصد .

يختلف معى الأستاذ شاهين فى سر إعجاب جرير بن الخطفى بتشبيه عدى بن الرقاع فى بيته :

تزجى أغن كأن إبرة روقه قلم أصاب من الدواة مدادها

فهو يرى أن سر إعجابه أن هذا التشبيه حضرى وعدى بدوى جلف جاف ، وأنا أرى أن سر الإعجاب أن الشاعر استطاع أن يأتى بمشبه به موافق كل الموافقة للمشبه . ثم جاء به من مكان بعيد لا ينتظر أن يهتدى إليه .

غزال صغير له قرن صغير فى طرفه سواد أراد الشاعر أن يلتمس له شبهاً وجرير حاضر فوقع فى نفسه أنه لا يمكن الإتيان بشبيه له لدقته وبعده عن الافهام ، فلما تهدّى إليه الشاعر ووجده فى قلم لم يصب من المداد إلا قليلا ووجد جرير أن الشبه تام بين المشبه والمشبه به حسد عدياً على هذه القوة البيانية .

أما أنه حسده على أنه أتى بشبيه حضرى فمعنى ذلك أن جريراً كان يتوقع من الشاعر أن يهتدى لهذا التشبيه نفسه أو مثله من التشبيهات الحضرية ، وما أظن جريراً خطر على باله شىء من ذلك . وهب أن شاعراً شبه شيئاً بدوياً بشىء حضرى وكان التشبيه ضعيفاً واهناً أكان يعجب ذلك جريراً . لا . وإنما إعجابه كان لما ذكرنا .

٥ — كنت أحب للأستاذ شاهين أن يخلو نقده من هذه الكلمات .

« فليسمح لى الزميلان الطنطاوى والعمارى أن ألفت نظرهما إلى مزالق ما كنت أحب لهما أن يتورطا فيها أو ينحدرا إليها » .

وقوله : « فأما إذا انحدرت إلى هذا فهلم » وقوله : « وليس هذا بالكلام يصغى إليه » إلى غير ذلك من الكلمات التى تجرح وأظن أنا كلنا له صاعاً بصاع فان زاد زدناه .

على العمارى
المدرس بمعهد القاهرة